(١٠)
وتبقى كلمة

obeikandl.com

فى قراءة سريعة لعشرات الكتب فى الأدب والفلسفة والشعر ومختلف العلوم، بجانب قراءة واستيعاب عشرات الكتب فى الدين وعلومه، كانت هذه الرحلة.. أو الإبحار فى ملكوت الله.. وكل هذه الكتب وما تحويه من دراسات وأفكار ونظريات، كانت مجرد (منظار مكبر) من خلاله حاولت أن أعرف.. وما أصعب المعرفة.. وما أصعب الوصول إلى شواطىء الحقيقة.. فالحقيقة عزيزة المنال، ولكن محاولة الاقتراب منها، ومعرفة بعض أبعادها، يقوى فينا ملكات الإدراك والتخيل والتصور، وهذه الملكات تجعلنا ندرك كم أن كون الله عظيما إلى أبعد ما تكون العظمة، وبالتالى فإن قدرته - جل علاه - قدرات تفوق إدراك العقل البشرى.. فهو يقول للشىء (كن فيكون).

وكم من عالم عاش حياته كلها يحاول أن يدرك سر الحياة، ومات ولم يقترب إلا من شواطىء المحيط أما المحيط نفسه فملىء بالأسرار.

وكم من مفكر عاش طوال حياته يفكر فى معنى هذا الوجود ومات وهو لم يدرك إلا أقل القليل.

وهناك من الزهاد والعباد والمتصوفة من أضناه البحث عن الحقيقة، فلم تبدى لهم عن طريق الإلهام خيطا من نور، فقد بعضهم عقله وعاش مجذوبا.. معرضا عن دنيا الناس، متعلقا قلبه بهذا الوميض الذى جعل الدنيا لا تساوى عنده جناح بعوضه.

ومنهم من بلغ بهم الشوق والحب مداه لخالق هذا الوجود، بعد أن رأوا بقلبوهم.. جمال انشراح الصدر، وروعة الإيمان، ولذة اليقين، فهاموا حبا بالله، وعاشوا فى الله وبالله.

ها هو عمر بن الفارض يهيم حبا بالذات الإلهية، وينتشى بخمر هذا الحب الذى وصفها بهذا الشعر الجميل:

يقولون لى صفها فأنت بوصفها
خبير ، أجل عندى بأوصافها علم
صفاء ولا ماء ولطف ولا هـوى
ونور ولا نـار وروح ولا جسـم
تقـدَّم كـلَّ الكائنـات حـديثُها
قـديما ولا شكل هناك ولا رسـم
وهامت بها روحى بحيث تمازجها
اتحـادا ولا جرم تخلَّله جُـرمُ
ولاتبلهـا قـبـل ولا بَعْـدَ بـعـدهـا
وقَبليّةُ الأبعـاد فهى لها حَـتْمُ

أن هذه المدامة الإلهية الغريبة يشرحها الدكتور شوقى ضيف، بأن ابن الفارض يصرح بأن المدامة التى شرب من دنها ليست مقيدة بالمادة وأشكالها من ماء ونار وجسم، بل هى نور روحانى صاف،

نور يتقدم كل الأكوان بكائناتها ومظاهرها، قبل أن يتخلَّق أى شكل وأى رسم وأى وجود، وهو نور كانت تمتزج به حينئذ وتتحد أقباس الأنبياء وتابعيهم من المتصوفة، حين كانت لاتوجد سوى الحقيقة الإلهية متحدة بالحقيقة المحمدية، أو بعبارة أخرى حين كان لايوجد سوى الله مدبر الكون فيما بعد ومنشئه ومبدعه بكل ما فيه من جواهر وأجرام وأجسام، حيث كان متفردا بوجوده الأزلى الذى لاسابق له ولا نهاية.. فهو الأول وهو الآخر، وهو الأزلى الخالد، أصل كل الكون ونبع كل الوجود.

وهذا الحب الإلهى كان هو كل شىء بالنسبة (لابن عربى) والأديان كلها منبعها وحى السماء.. فهو القائل:

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبى
إذا لم يكن دينى إلى دينه دانى
لقد صار قلبى قابلا لكل صورة
فمرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيت لأوثان وكعبة طائف
وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنى توجهت
ركائنه فالحب دينى وإيحائى

وهذا الحب الذى جعل (رابعة العدوية) تترنم بهذه الأبيات:

إنى جعلتك للفؤاد محدثى

وأبحت جسمى من أراد جلوسى

فالجسم منى للجليس مؤانس

وحبيب قلبى فى الفـــؤاد أنيسى

وهل هناك أجمل وأروع من تلك الترنيمة التى كانت تترنم بها، وقد شعرت بجمال المفاجأة للحبيب الأعظم واهب الوجود، وخالق كل شىء، وهو بعباده الرءوف الرحيم

فليتك تحلو والحـياة مـريـرة

وليتك ترضى والأنام غضاب

وليت الذى بينى وبينك عامـر

وبينى وبين العالمين خـــراب

إذا صح منك الود فالكل هين

وكل الذى فوق التراب تراب

وهو أيضا صاحب هذه الكلمات الخالدة التى تمثل الحب الإلهى أجمل تمثيل، وترينا أن حب الله هو النجاة من كل شىء.. هو الطريق إلى النور والأمن والأمان.. فى رحاب الخالق العظيم.

أحبك حبين حب الهـوى

وحـبـاً لأنـــك أهـــل لـــذاك

فأما الذى هو حب الهوى

فحب شغلت به عمن ســواك

وأما الذى أنـت أهـــل لـه

فكشفك لى الحجب حتى أراك

فما الحمد فى ذا ولاذاك لى

ولكن لك الحمــد فى ذا وذاك

منتهى الأمل فى الله . .

الله . . الذى وسعت رحمته كل شىء فى السماوات والأرض . . واهب الحياة، وخالق كل شىء، وإليه الرجعى ومما يروى عن (الحب الإلهى) الذى يسمو بصاحبه إلى مدارج النور ما قاله أبو بكر الكتانى:

«جرت مسألة فى المحبة بمكة أعزها الله تعالى - أيام الموسم - فتكلم الشيوخ فيها، وكان الجنيد أصغرهم سنا.

فقالوا: هات ما عندك يا عراقى؟

فأطرق رأسه، ودمعت عيناه، ثم قال:

عبد ذاهب عن نفسه، متصل بذكر ربه، قائم بأداء حقوقه، ناظر إليه بقلبه، أحرقت قلبه أنوار هيبته.. وصفا شربه من كأس وده، وانكشف له الجبار من أستار غيبه.

فإن تكلم فبالله.

وإن نطق فعن الله.

وإن تحرك فبأمر الله..

وإن سكن فمع الله.. فهو بالله ولله ومع الله..

* * *

إن الإنسان فى دنياه على سفر.. وعندما تمضى أيامنا على الأرض، وإلى أن تقوم الساعة، بعد أن تتوافد على الأرض ماشاء الله أن يتوافد عليها من مخلوقات فإننا نرجو رحمة الله.. ورحمة الله تسع كل شىء.

* * *

obeikandl.com